الرحلات العلمية في إقليم توات بين الثقافة والتاريخ: رحلات عبد الرحمن بن عمر التنلاني"

أ.د. محمد كنتاوي. جامعة أدرار، (الجزائر)،
Kantmed2301@univ-adrar.edu.dz
د. نسرين عطية. جامعة تامنغست (الجزائر)،
nesrineat83@gmail.com

ملخص:

يتناول هذا البحث دراسة الرحلات العلمية في إقليم توات بوصفها نشاطًا ثقافيًا وتاريخيًا بارزًا، مستعرضًا نموذج عبد الرحمن بن عمر التنلاني. يهدف البحث إلى تحليل الأبعاد الثقافية التي ساهمت بها هذه الرحلات في نشر العلم والمعرفة، وتسليط الضوء على البعد التاريخي الذي يعكس أهمية إقليم توات كمركز علمي وتجاري. ويركز على إبراز إسهامات التنلاني في تعزيز التراث العلمي والثقافي للإقليم. وبناء على ذلك نطرح الإشكال الآتي: كيف ساهمت الرحلات العلمية في إقليم توات في تشكيل البنية الثقافية والتاريخية للإقليم؟ وما هي الأبعاد الثقافية والتاريخية لرحلات عبد الرحمن بن عمر التنلاني، وما تأثيرها على الحركة العلمية والثقافية في المنطقة؟؛ أما منهج البحث فهو متنوع بين: المنهج الوصفي التحليلي :لتوصيف وتحليل المعطيات التاريخية والثقافية المتعلقة بإقليم توات ورحلات التنلاني؛ والمنهج التاريخي :لدراسة السياق التاريخي للرحلات العلمية وتوثيق دور التنلاني ضمن هذا السياق؛ ومن أجل ذلك تكون أدوات البحث ممثلةً في تحليل النصوص والوثائق التاريخية المتعلقة بإقليم توات ورحلات التنلاني، بالإضافة إلى المراجع التي تناولت الحركة العلمية في المنطقة.

الكلمات المفتاحية: الرحلات العلمية؛ إقليم توات؛ عبد الرحمن بن عمر التنلاني؛ الأبعاد الثقافية؛الأبعاد التاريخية.

Abstract:

This research examines the scientific journeys in the Touat region as a significant cultural and historical activity, focusing on the model of Abd al-Rahman bin Omar Al-Tinlani. It aims to analyze the cultural dimensions these journeys contributed to spreading knowledge and science while highlighting the historical aspect that underscores the

importance of the Touat region as a scientific and commercial hub. The study emphasizes Al-Tinlani's contributions to enriching the scientific and cultural heritage of the region. Based on this, the research raises the following problem: How did the scientific journeys in the Touat region contribute to shaping its cultural and historical framework? What are the cultural and historical dimensions of Abd al-Rahman bin Omar Al-Tinlani's journeys, and what is their impact on the scientific and cultural movement in the area? The research methodology combines the descriptive-analytical approach to describe and analyze historical and cultural data related to the Touat region and Al-Tinlani's journeys, and the historical approach to explore the historical context of the scientific journeys and document Al-Tinlani's role within this context. Research tools include analyzing historical texts and documents related to the Touat region and Al-Tinlani's journeys, alongside references addressing the scientific movement in the area.

Keywords: Scientific Journeys; Touat Region; Abd al-Rahman bin Omar Al-Tinlani; Cultural Dimensions; Historical Dimensions.

- **مقدمة:**

إذا طالعنا كتاب "**الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات** " للشيخ محمد باي بلعالم فنحن بلا شد نقف على مرجع غني ومرشد علمي للباحثين والمؤرخين وكل المهتمين بتاريخ منطقة توات بمناطقها الثلاث: تيدكلت، توات، ڤرارة (تيميمون). تضمنت هذه الرحلة رصدًا دقيقًا ومفصلًا للآثار والمخطوطات التي تعكس الإرث الثقافي والحضاري للمنطقة، إلى جانب تسليط الضوء على العادات الاجتماعية والصناعات المحلية، مع توثيق أخبار القبائل التي تراوحت بين الشهرة والاندثار.

امتدت منهجية المؤلف إلى وصف معمق للمساجد والمدارس والزوايا والمعاهد التي شكلت مراكز للإشعاع العلمي، مع إبراز أسماء أعلام البلاد وعلاقاتهم الثقافية والعلمية خارج حدود

الإقليم. وقد تميزت الرحلة بتقديم صورة متكاملة، تجعل منها موسوعة تجمع بين العلوم الدينية والأدبية والعلمية، مما يُبرز بوضوح النهج المنهجي الذي سار عليه المؤلف.

اعتمد محمد باي بلعالم في كتابته على أسلوب الرحالة المسلمين الأوائل، حيث استعرض ملامح الحضارة الإسلامية بتفصيل، مع التركيز على الجغرافيا الطبيعية للإقليم، بما في ذلك التربة، المحاصيل، الأشجار، العيون، السواقي، والجبال. هذا إلى جانب اهتمام خاص بالأنساب، حيث قدم تحقيقات دقيقة تتناسب مع المقامات والمناسبات.

ولإضفاء عنصر الجاذبية، أضاف المؤلف مجموعة من الطرائف والقصص التربوية، التي زادت النص تشويقًا وأظهرت عمق فهمه للتراث الشعبي والثقافة المحلية. كل ذلك يجعل الرحلة العلية نموذجًا فريدًا يجمع بين التوثيق التاريخي، التحليل الثقافي، والجمالية الأدبية.

- **الأبعاد العلمية والتاريخية والثقافية للرحلة العلية:**

ورغم أن الرحلة التي قدّمها الشيخ باي تبدو على أنها توثيق شامل ووافي للمنطقة، إلا أنه في مقدمته للرحلة أشار إلى أن ما قام به ليس سوى ملاحظات وقراءات سريعة للأوضاع الثقافية والاجتماعية في منطقة توات. فقد أراد الشيخ باي أن يقدم للقارئ نظرة شاملة حول المنطقة دون أن يدعي أنها دراسة متعمقة أو بحث أكاديمي، بل ملاحظات تقتصر على ما وقع تحت نظره من معالم تاريخية وثقافية، مثل الآثار والمخطوطات والعادات والتقاليد الاجتماعية. فتراه يقول:«...أقدم بين يديك أيها القارئ، أيها الباحث، أيها المؤرخ، أيها المنقب عن تاريخ منطقة توات بمقاطعاتها الثلاث... هذه الملحوظة وإن شئت قلت: هذه الملاحظة...»[١].

هذه الملاحظة تدل على تواضعه العلمي ووعيه بالمحدودية التي تميز عمله، حيث يعتبر أن هذه الرحلة ليست سوى محاولة لرصد بعض جوانب الحياة في توات بقدر ما يسمح به الوقت والمكان. ومن هنا، نجد أن الشيخ باي لم يهدف من خلال هذه الرحلة إلى تقديم دراسة شاملة بل إلى تقديم لمحة عامة عن المنطقة بما في ذلك الأعلام والتقاليد والعادات التي تشكل جزءًا من هوية هذه البقعة الجغرافية.

فكانت "الرحلة العلية" مثالًا حيًا لعدد من الرحلات العلمية التي عجز المؤرخون والباحثون عن حصرها أو تحقيقها بشكل كامل، فلم يكن بمقدورهم الوصول إلى تفاصيلها كلها إلا ما تيسر لهم من معلومات، بل يمكن اعتبارها خلاصة علمية وأدبية نقدية لعدد كبير من تلك الرحلات التي عاشها الشيخ – رحمه الله – شخصيًا. تمثل هذه الرحلة أيضًا تكميلًا وتوضيحًا للرحلات

التي وردت في المخطوطات التي أُرسلت إليه أو التي رواها عليه أصحابها، أو التي تلقاها سماعًا أو مراسلةً، كما أنها تضم معلومات أوردتها مخطوطات وجدت في خزائن إقليم توات.

علاوة على ذلك، تحتوي الرحلة على سير ذاتية وتراجم لعلماء ذاع صيتهم وانتشرت أخبارهم في المنطقة وفي بعض بلدان أفريقيا. وقد حرص الشيخ على توثيق سير هؤلاء العلماء وأدبهم ورسائلهم في مختلف العلوم الدينية والفقهية، وكذلك في مجالات اللغة والأدب، إضافة إلى شعرهم الذي تنوع في أغراضه وألوانه.

وفي هذا السياق، أشار الشيخ إلى أن رحلته العلية تختلف وتتميز عن مؤلفاته السابقة، التي شملت علوم القرآن والحديث والأصول والفقه والنحو والأدب، «... حيث أن كل فن صنفت فيه كانت المنهجية فيه أن أقيده بأبواب وفصول ولمحات أو دروس ... ولكن مؤلفي هذا: الرحلة العلية ... كانت منهجتي فيه خاصة منهجية الكشكول وعدم القييد بالأبواب والفصول وما يلحق الأبواب من المباحث»[٢]؛

حيث اتخذ في هذه الرحلة منهجًا مختلفًا عما كان عليه في مؤلفاته السابقة. وقد بيّن ذلك في مقدمته للرحلة، مؤكداً على أن هذا العمل يتسم بخصوصية منهجية، حيث لم يكن مجرد جمع للمعرفة وإنما كان محاولة لتقديم قراءة نقدية عميقة ومتنوعة لما عايشه من علوم وثقافات، محاولًا بذلك تقديم إضافة علمية وأدبية فريدة للمهتمين بتاريخ وثقافة المنطقة.

وطبيعة الموضوع، بما يتضمنه من تنوع وتعدد في المصادر والروايات، تدفعه دفعًا إلى هذا المنهج، حيث يصعب على الباحث أحيانًا ترتيب المعلومات بشكل دقيق دون إلحاق بعضها ببعض أو إضافتها لمعلومات أخرى. لذلك، نجد أن المراجع تتوزع وتتنوع، والروايات تختلف وتتفاوت، مما يساهم في تشتيت ترتيب البحث. إن الالتزام التام بالتبويب والتفصيل في هذا السياق قد يؤدي إلى إطالة البحث بشكل مفرط، ويزيد من تعقيداته، مما يرهق الباحث ويؤدي به في بعض الأحيان إلى الانحراف عن مسار الموضوع أو الهدف الرئيس للدراسة. وقد برّر الشيخ ذلك بقوله: «إنني غير ملتزم بالترتيب ولا بالتقديم والتأخير بل كما تحصلت على معلوم ألحقته غير مبال بأنه يحق له أن يتقدم أو يتأخر، من هذا المنطلق فإن الرحلة مفتوحة للقارئ لا يغلق عليه باب ولا يفصله عنها فصل ولا يحدده مجلس، فهو جمع للمعلومات وتدوينها لا ترتيبها وتنظيمها»[٣].

وعليه فإن تنوع المصادر وتعدد الروايات يجعل من الصعب تنظيم المعلومات بما يتناسب مع هيكل البحث التقليدي، مما يستدعي في كثير من الأحيان الجمع بين المعطيات وتقديمها في سياق واحد لتسليط الضوء على النقاط الأهم دون الإغراق في التفاصيل التي قد تشتت الهدف المرجو من الرحلة.

وقد أبدع الشيخ في جمع "الرحلة العلية" وفي تصنيفاتها لتُمثل هذه الأخبار والروايات والملح والفنون كافة في مجلدات تحتوي على أربعة وثمانين بعد ألف صفحة [١٠٨٤ ص] موزعة بين الجزء الأول والجزء الثاني. وقد شملت الرحلة ما يقارب اثنين وخمسين وسبعمائة من البحوث [٧٥٢ بحثًا]، وقد خُصص لكل بحث رقم في الفهرسة يسهل على الدارس تحديد المواضيع والرجوع إليها، مما يتيح له التعمق في البحث باستخدام المصادر والمراجع التي أشار إليها الشيخ، والتي بلغ عددها خمسة وثلاثين بعد مائة كتاب [١٣٥ كتابًا]. وقد عمد الشيخ إلى تجاوز بعض المصادر اختصارًا. إنني أرى أن أقدم هذا العمل من خلال شقين: الأول يركز على أدب الرحلة الذي يمثل المحور الأساسي لهذه المداخلة المتواضعة، بينما يركز الثاني على الجواهر النادرة التي وردت في طيات "الرحلة العلية"، والتي تحمل أدبًا ممتازًا ومتفردًا يعكس قدرة الشيخ على تقديم معارفه بأسلوب مميز.

قبل أي حديث علينا أن نجيب على مسألتين بارزتين في موارد البحث:

- **الأولى**: على صاحب الرحلة العلية.
- **الأخرى**: إقليم توات.

أولا/ من هو الشيخ محمد بلعالم؟

هو محمد أبو عبد الله بن محمد عبد القادر بن محمد بن المختار بن أحمد العام القبلاوي الجزائري، المعروف بالشيخ باي، هو أحد الشخصيات البارزة في تاريخ العلم والدين في الجزائر. ينتمي إلى قبيلة فلان، التي تتعدد حولها الآراء وتختلف حول نسبها، ولكن الأكثر شهرة هو أن جذورها تعود إلى قبيلة حمير اليمنية العربية المعروفة. وُلد الشيخ باي عام ١٩٣٠م في قرية ساهل التابعة لبلدية اقبلي بدائرة أولف في ولاية أدرار جنوب الجزائر، وكان الخامس بين إخوته وترتيبه الثالث بينهم.

نشأ الشيخ باي في أسرة علمية؛ فوالده محمد عبد القادر كان فقيهًا وإمامًا ومعلمًا. هذا الجو العلمي أثر فيه، وكان له عدة مؤلفات، منها: "تحفة الولدان فيما يجب على الأعيان"،

و"منظومة الولدان في طلب الدعاء من الرحمن"، و"منظومة حال أهل الوقت" التي حارب فيها البدع والخرافات. كما له العديد من القصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم.

رغم انشغاله الكثيف والمسؤوليات الكبيرة التي تحملها، لم يتوقف الشيخ باي عن طلب العلم. فقد سافر إلى عدة بلدان عربية، مثل تونس والمغرب الأقصى وليبيا والمملكة العربية السعودية، حيث زارها للمرة الأولى عام ١٩٦٤م لأداء مناسك الحج والزيارة، ليعود إليها مرة ثانية عام ١٩٧٤م، ومنذ ذلك الحين لم يتخلف عن أداء فريضة الحج إلا في السنوات الأخيرة من عمره، ليحصل على ٣٧ حجة و١٤ عمرة.

توفي الشيخ باي رحمه الله في ليلة السبت إلى الأحد الموافق ١٩-٢٠ أبريل ٢٠٠٩م، تاركًا وراءه إرثًا علميًا ودينيًا ثريًا سيسهم في إلهام الأجيال القادمة.

ثانيا/ إقليم توات:

يقع الإقليم في الجنوب الغربي للجمهورية الجزائرية، ويُعد أكبر وأشهر الأقاليم الثلاثة في ولاية أدرار. يتكون الإقليم من العديد من القصُور والواحات، التي تجاوز عددها خمسين، وتنتشر على مساحة تمتد لحوالي ألفي ميل مربع من الرمال. تقع توات بين خطي طول [٤ غربًا — ١ شرقًا]، وخطي عرض [٢٦ — ٣٠ شمالًا]. ويعد إقليم توات وجهة تاريخية وثقافية مهمة، كما يتضح من المصادر مثل "إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين" (فرج محمد فرج، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر) و"تاريخ الجزائر العام" (عبد الرحمن محمد الجيلالي، مطبعة الجزائر، جـ٢/٣٢٨.(

أما بالنسبة لأصل كلمة "توات"، فقد تعددت الروايات حول معناها؛ حيث ورد في أحد المخطوطات أن "توات" تعني "وجع الرأس" (**مخطوط "جوهرة المعاني في تعريف ما ثبت لدي من علماء الألف الثاني"، ابن عبد الكريم، المكتبة البكرية، تمنطيط**). بينما يذهب البعض إلى أنها اسم لأحد البطون المنحدرة من قبيلة الملثمين من قبائل الصحراء (**تعريف الخلف برجال السلف، الجزائر ١٩٠٦، أبو القاسم محمد الحفناوي، ص ٦٢**). وهناك أيضًا من يرى أن الكلمة أعجمية بمعنى "يُواتيهم"، في إشارة إلى القبائل التي لجأت إلى هذا الإقليم في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، بعد أن وجدت فيه بيئة مناسبة لها (**مخطوط "تاريخ توات"، محمد بن مبارك، مكتبة محمد بن الكبير، أدرار، ص ٠٢**). وقد ذكرها ابن خلدون في ديوانه بقوله:

"تلك المقاطعات الواقعة بمحاذاة وادي مسعود فقط" (**ديوان العبر والمبتدأ والخبر، ابن خلدون، بيروت، ج ٧/١١٧-١١٨**).

وقع اختياري، لحظة اطلاعي على ما تحتويه "الرحلة العلية" من رحلات وأخبار وتراجم وسير، على رحلة السيد عبد الرحمن بن عمر التنلاني من بين ما يزيد عن ثلاثين رحلة داخل الإقليم المذكور، دون النظر إلى الرحلات المغاربية الأخرى، وذلك لأسباب عدة تضافرت لتأكيد هذا الاختيار. ومن أبرز هذه الأسباب:

١. **شخصية الرحالة السيد عبد الرحمن بن عمر** :حيث يُعتبر من الشخصيات البارزة في مجاله، وله تأثير كبير في محيطه الثقافي والعلمي.
٢. **تفرده في صناعة الشعر** :حيث تميز بأسلوب شعري خاص به، يمكن الوقوف عليه في مرحلة خاصة من المداخلة، ما يجعله مصدر إلهام في أدب الرحلات.
٣. **تفرده بالرحلات داخل الإقليم وخارجه** :فقد قام بعدد من الرحلات داخل إقليم توات أولاً، ثم خارج الإقليم في بعض بلدان الوطن، وأخيرًا خارج الوطن، مما يتيح له تقديم رؤية متنوعة ومتكاملة.
٤. **نيله حظوة من الذكر** :فقد نال السيد عبد الرحمن بن عمر التنلاني حظوة من الذكر لدى العديد من الباحثين والدارسين والمؤرخين من أهل العلم والأدب والدين، مما يعكس مكانته العلمية والثقافية الرفيعة.

ومع ذلك فقد يتبادر إلى الاذهان سؤال صريح مفاده: لمَ العزوف بذكر رحلة **عبد الرحمن بن عمر التنلاني**[٤] عن الرحلة العلية وهي التي تحتويها فضلا عن الرحلات المماثلة، خاصة وقد أشرت إلى كونها تشمل فنونا وأخبارا وعادات وتأريخات لعصور مضت وغيرها مما سبق بيانه؟؛ فأقول: إن سبب ذالك العزوف هذا العزوف وذلك الاختيار هو ذاته القيمة المعرفية للرحلة العلية وذاته السبب الذي تقدم به صاحبها محمد باي بلعالم، لأن الأمر يقتضي مداخلات لا مداخلة واحدة، ويتطلب جلسات لا جلسة واحدة، وبه كان قرار الاختيار الصعب.

وقبل الشروع في الحديث عن الرحلة، أرى ضرورة الوقوف عند سيرة السيد عبد الرحمن بن عمر التنلاني، والاطلاع على بعض الجوانب من التراجم التي نسجت حوله، لنتمكن من التعرُّف على شخصيته وفكره وتوجهاته. وذلك لتفريقه عن غيره من الأعلام الذين يحملون الاسم ذاته أو

من يشاركونه في تسلسل النسب، خاصة من أهل بلده ومعاصريه ومن جاءوا بعده. فذلك يمثل أحد التحديات التي يواجهها الباحث، والتي قد تخرج البحث عن جادة الصواب والصدق إذا لم تُتَخذ الحيطة الكافية.

أولا– رحلة السيد عبد الرحمن بن عمر التينلاني [ت ١١٨٩هـ]:

١) ترجمته:

السيد عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن معروف بن يوسف[٥]، فقيه لغوي نحوي شاعر عالم بالعروض، من تينلان أصلا وبها قرأ وتعلم، التواتي نسبة ونشأة، القرشي نسبا فقد اجتمع مع النبي في عبد مناف[٦]؛ وكان الشيخ عبد الرحمن عالماً جليلاً وأستاذاً عبقرياً عالم الأعلام ومرشد أهل الإسلام، حافظا للوقت عاملاً ثاقب الذهن ذا وقار وديانة[٧]، حتى انتهت إليه رياسة العلم والفتوى في زمانه[٨]، كان ملازماً للتدريس حتى أصبح لا ينام من الليل إلا قليلا؛ أنفق سني حياته للعلم والتعليم فبات قدوة للعلماء في الإقليم (توات)؛ فكان الشيخ «... عالما عاملا حافظا ثاقب الذهن صحيح العين فصيح اللسان رحب الجنان ثاقب الذهن، مع عفة وصيانة ووقار، ديانة قطب الشورى، انتهت إليه رياسة الفقه بالديار ..»[٩].

واشتهر برحلاته داخل البلاد وخارجها واستمر كذلك بغرض طلب العلم ونشره والعمل والاجتهاد دون كلل أو ملل[١٠]، منها وأشهرها: رحلته إلى سجلماسه، رحلته إلى بلاد التكرور؛ رحلته إلى أروان؛ رحلته إلى الحج وهذه أكثر رحلاته إبداعا وأكثرها التصاقا بأدب الرحلة؛ وهو – في نظر الباحثين– عميد[١١] أدباء الرحلة في إقليم توات، لتوجهه في هذا الفن من جهة ولأنه: «.. خلّصه من تبعات فن الإجازات خصوصا في رحلته الأخيرة للحج من شيوخه سيدي عمر بن عبد القادر التينلاني، والشيخ محمد بن أبَّ المزمري، والشيخ عمر بن المصطفى الرقادي، والشيخ أحمد الحبيب السجلماسي اللطمي، والشيخ سيد احمد بن عبد العزيز الهلالي..»[١٢]. وأثر هؤلاء الشيوخ ممن تقدم باد في رحلاته وبارز وخاصة الرقادي منهم.

توفي الشيخ عائدا من الحج وهو يكتب رحلته إلى بلاد الحجاز، في الأراضي المصرية في التاسع والعشرين من شهر صفر من عام تسع وثمانين ومائة بعد ألف هجرية؛ عند طلوع الفجر[١٣] ودفن بمقبرة المنوفي[١٤] ؛ ما يسمى اليوم : المنوفية المصرية.

رثاه تلميذه محمد بن المبروك البوداوي[١٥] في قصيدة من ست وعشرين بيتا[١٦]، قائلا:

ألا يا مصرَ قد ازددت فخرا ** بحبر حلّ مقبرة المنوفي
بعيد زيارة الهادي المنبأ ** من حجّ البيت حقا بالوقوف
توفي في مساكن مصر فجرا ** وكم صلت عليه من الصفوف
محمد أصله المبروك يرثي ** الحبيب بوافرٍ لا بالخفيف

وجاء في آخرها:

٢) رحلاته:

صنَّف الباحثون والمؤرخون للشيخ عبد الرحمن بن عمر التنلاني جملة من الرحلات العلمية والتعليمية التي تنوعت بين رحلاته داخل إقليم توات وبين رحلاته إلى مناطق أخرى داخل الجزائر وخارجها. وقد كان الغرض الأساسي من هذه الرحلات طلب العلم والتفقه في شتى فنون العلوم، وتحصيل المعرفة من منابعها الأصلية، حيث كانت نيته التمكن من هذه العلوم وفهم جوهرها بعمق. وكان حريصًا على الاستفادة من شيوخه وعلماء بلاده وخارجها، مما جعل له أثرًا علميًا كبيرًا، وأسهم في نشر العلم والفقه في المناطق التي زارها.و خلال هذه الرحلات، اجتمع الشيخ عبد الرحمن بعدد من كبار العلماء وأهل الفضل في مختلف مجالات العلم، من فقهاء ومحدثين وأدباء، حيث تلقى عنهم علومًا في شتى التخصصات. وقد كانت رحلاته لا تقتصر على المعرفة الكتابية وحسب، بل شملت أيضًا لقاءات مباشرة مع كبار العلماء الذين كانوا يشتهرون بعمق معرفتهم وسعة أفقهم؛ وفي ما ياتي تفصيل لأشهرها وأخصّها:

[أ]– الرحلة الأولى[١٧] (إلى بلاد التكرور):

رحلته إلى بلاد التكرور[١٨] صحبة شيخه السيد عمر بن محمد بن المصطفى الكنتي[١٩] وابنه، يشير بذلك في فهرسته إذ يقول: «.. ثم بدا له (يقصد الشيخ الكنتي) السفر لبلاد التكرور فطلب مني مصاحبته فأجبته إلى ذلك من غير أن أستأذن أبويّ والشيخ (يقصد أبي حفص[٢٠]) لكن كتبت إليهم كتابا معتذرا لهم، فرأيت منه حسن الصحبة واللطف وحسن الخلق والأثرة

أضعاف ما كنت أعهد منه في الحضر..»[٢١]، ويرمي في كلامه إلى بعض خصال شيخه الكنتي الذي كان يخصه بالمنفعة ويؤثره على ولده في المأكل والمشرب والمركب، فكان شديد الالتصاق به حريصا على القرب منه لأجل الاستزادة من علمه[٢٢]، وفوق ذلك كله التعلم منه والتأسي بمكارم الأخلاق وحسن المعاملة وصدق الكلام.

قال الرحالة في هذا: «.. وكان يسائلني في بعض الأحيان ويقول إلى: يا فلان أصدقني أسألك بالله هل أنكرت من حالي شيئا؟ فإنما سمي السفر سفرا لأنه يسفر عن أحوال الرجال..»[٢٣]، وكان ذلك امتحان لرأيه — فيما ظن الشيخ — فقد قال: «..وأظن أنه يعرض بي لما رأى من تغيير خلقي من طول السفر فقدمنا قرية تودنّ وأقمنا بها مدة فمرضتُ بها أياما فأنكرت الإقامة بها لقبح عيشها وملح مائها وأردت التوجه لقرية المبروك فمنعني واعتذرت فألح علي وبكى .. فلما رأيت منه ذلك رق قلبي وأقمت معه..»[٢٤].

وبعد طول معاشرة وملازمة ونيل علم رجع الشيخ إلى بلاده تاركا شيخه الكنتي في قرية المبروك فيقول: «..فأقمت معه هناك في حسن عشرة ورغد عيش ومذاكرة وقراءة ثم توجهت عنه لقرية المبروك وتركته هنالك أريد التوجه منها لبلادنا فأقمت هنالك حتى خرجت مع رفقة لبلادنا.»[٢٥]. وقد سرد الشيخ محمد باي بلعالم نص الرحلة كاملا كما ورد في فهرسة الرحالة[٢٦] دون حذف أو تغيير أو اختصار، وعمل مثل ذلك في باق الرحلات التي رواها عنه.

[ب]– الرحلة الثانية (إلى أروان):

بعد الرحلة سابقة الذكر للشيخ عمر بن عبد الرحمن كانت هذه الرحلة، فقد مكث زمانا في توات واستراح ثم جدد عزمه لزيارة شيخه السيد عمر الكنتي ومجالسته والقراءة عليه والتعلم منه، تماما كما كان عهده به في رحلته السابقة، فالتحق به في مقامه في "أروان[٢٧]" «..فلما قدم عليه مكث معه مدة على الحالة الأولى من مذاكرة وقراءة وحسن معاملة.»[٢٨].

وترى الشيخ عبد الرحمن في ذلك لم يحدد لنا مدة إقامته مع شيخه السيد عمر الكنتي، حتى عاد لبلدته تينلان مخلفا شيخه هناك، غير أن العلاقة بينهما ازدادت تأصلا وترسخت بحيث لا يغيرها سبب أو يبدلها فعل فاعل. وأشار الرحالة في الفهرسة متحدثا عن علاقته بشيخه الكنتي: «..ثم قدم لبلده (يقصد زاوية كنتة) وأقام بها مدة يزورني وأزوره حتى كان آخر العهد به أن صحبته لبلاد تيدكلت لملاقاة ركب الحجاج فدعاه أمير الحاج سيدي محمد أبي نعامة لصحبته للحج فأجابه وحج...»[٢٩].

ولما كان يصفه ويروي عنه قال: «..كان رحمه الله منذ عرفته ملازما للإفادة والاستفادة يأخذ عن كل من لقيه ولو كان أدنى منه، منشغلا بما يعنيه من قراءة وإقراء وإسماع وتقييد، لا يمل ذلك حريصا عليه، جماعا للكتب بكل ما أمكنه...»[٣٠]؛ وكان آخر لقاء بينهما قبيل موسم حج ذلك العام (الهامش ص٥).

[ج]– الرحلة الثالثة (إلى سجلماسة):

كانت هذه الرحلة إلى سجلماسة[٣١] مخصوصة من صاحبنا لزيارة الشيخ سيدي صالح بن محمد الغماري، ونيل الإجازة عنه في قراءة نافع بالروايتين: ورش وقالون، وهذا السبب الأول الوجيه ومدعاة الرحلة، وقد حدد تاريخها يوم الاثنين التاسع عشر من جمادى الأولى سنة ثمان وستين ومائة بعد الف هجرية [١١٦٨هـ] عند الزوال منطلقا من تينلان[٣٢]؛ ويفصل سجلماسة عن إقليم توات مسيرة ثلاثة عشر يوما[٣٣]، فنستنتج أن ذا هو الزمن الذي استغرقه الشيخ راحلا.

فبالغ الشيخ في إكرامه إلا أنه وجده يشتكي علة في عينيه فأخبره بقصده ومراده[٣٤] وأن أسباب الرحلة «..أن يأخذ عنه القرآن العظيم بمقرأ الإمام نافع بروايتي ورش وقالون من طريق الأزرق وأبي نشيط...»[٣٥]؛ وأقام عنده إلى يوم الثلاثاء الحادي عشر من جمادى الأخرى، لولا أن بلغه خبر شيخه سيدي أحمد بن عبد العزيز الهلالي بأنه سيسافر إلى مدينة فاس، وقد كان في نيته أن يزوره، فلما خشي فوات شيخه الهلالي استأذن سيدي صالح في الذهاب إليه واعدا إياه بالرجوع لاستكمال قراءته وحفظه[٣٦].

وبذلك يظهر لنا اهتمام الشيخ عبد الرحمن بن عمر التنلاني بعلمه وحرصه على تحصيله من أمهات المصادر العلمية، حيث كان لا يتردد في السفر والرحيل في سبيل اقتناء المعرفة من كبار علماء زمانه. وفي هذا السياق، تبرز حقيقة شخصية الشيخ التربوية والعلمية، التي كانت تتسم بالتفاني والجدية في طلب العلم، حتى وإن تطلب ذلك التنقل والترحال. وتبرز هنا نقطة هامة في سيرته العلمية؛ إذ أن الشيخ لم يكتفِ بما تحمله المسافات من مشاق، بل كان يحرص أيضًا على الحفاظ على علاقاته مع شيوخه والتواصل المستمر معهم، مما يعكس مدى تقديره العميق للعلم ومكانته في حياته.

ومع ذلك، تكشف هذه القصة عن سمة أخرى من سمات الشيخ عبد الرحمن، وهي التواضع والاحترام العميق تجاه شيوخه، حيث كان يقدرهم ويحترمهم، ويعدُّ زيارتهم شرفًا عظيمًا،

وهو ما يظهر جليًا في سعيه المتواصل لزيارة شيخه سيدي أحمد بن عبد العزيز الهلالي، حتى وإن حال دون ذلك مشوار سفره.

وبعد أداء واجب الزيارة للهلالي عاد لمجالسة الغماري وابتدأ السلكة[٣٧]، وختمها في مدة خمسة عشر يوما، وقد نبهه على مسائل «..من فن الأداء تخفى على كثير من القراء مثل عدم إظهار اللام الساكنة عند النون نحو: جعلنا- أنزلنا ... وكان ينبهه على بيان التشديد في نحو الدين إلى غي ذلك ...»[٣٨]؛ وترى أن مدة قراءته قصيرة وذلك مما يدل على شدة ملازمته الشيخ وحرصه المؤكد على وقته، وبداهة فهمه حذقه.

ويصف عمله قائلا: «..تارة يقرأ معي وتارة أقرأ وهو يسمع، وكان رضي الله عنه ينتهي على مسائل من التجويد لأنه لا يوجد بمغربنا الأقصى إلى اليوم من يحسن التجويد مثل ما يحسنه»[٣٩]؛ وكم أفاد الرحالة في ذلك من فن التجويد وتصحيح التلاوة ومعرفة ما يتعلق بالحروف من صفات ومخارج[٤٠]، فنال الإجازة التي سافر وعانى من أجلها؛ وما يلاحظ كذلك أن الرحالة بين تاريخ رحلته وأشار إلى زمانها ومدتها.

يبرز في هذا المقطع مدى تفاني الشيخ عبد الرحمن بن عمر في تعلم فنون التجويد وإجادة القرآن الكريم على يد أساتذته، حيث يظهر في حديثه شغفه الكبير بتعلم هذه المهارات الدقيقة، مما يعكس اهتمامه البالغ بتمكين نفسه من أحكام القرآن الكريم وصحة تلاوته. كما أن اختياره لهذا النوع من العلم لا يعد مجرد بحث عن المعرفة السطحية، بل هو بحث دؤوب عن التمكن والإجادة في أرقى فنون التجويد التي تمثل أرقى مستويات الفهم والتطبيق في حفظ القرآن؛ ويُظهر الحديث أيضًا العلاقة الوطيدة التي كانت تجمعه مع شيخه، فطريقة التبادل في القراءة والسماع بينهما تشير إلى أسلوب تعليمي متقدم يعتمد على الاستماع والتفاعل المستمر بين الشيخ والتلميذ. وكان هذا التفاعل أساسًا في نقل العلم وتهذيبه، مما يُسهم في تحقيق غاية الرحلة التي هي التوثيق العلمي والتمكن من علوم القرآن الكريم.

وتعكس هذه التجربة من الرحلة أيضًا الصعوبات التي واجهها الرحالة في سعيه وراء العلم، بما في ذلك السفر الطويل والابتعاد عن موطنه، مما يبرز عزيمته وقوة إرادته في تحقيق هدفه التعليمي. وبالتالي، يظهر أن الشيخ عبد الرحمن بن عمر لم يكن مجرد زائر لمجرد الزيارة، بل كان يسعى لالتقاط كل فرصة لتعلم أعمق من معرفته الحالية، وهو ما منح مسيرته العلمية صفة الاستمرارية والتطور.

[د]– الرحلة الأخرى (رحلة الحج[٤١]):

وأقول الأخرى لأنها آخر رحلاته، وقد خصها بمذكرة واضحة المعالم زمانا ومكانا مفصلة الأبعاد والمراحل، حيث انطلق من بلاده تينلان معددا مراحلها وأماكنها ورجالاتها ممن مر عليهم أو التقى بهم؛ وذكر انه خرج يوم الجمعة العاشر من جمادى الأخيرة سنة ثمان وثمانين ومائة بعد ألف هجرية [١١٨٨هـ]، وكان وصوله مكة المكرمة يوم الأربعاء السابع من ذي الحجة[٤٢].

والمذكرة موجودة في خزينة ابن الوليد[٤٣]، كما يصفها محمد باي بلعالم: «..قد تقطع الكثير منها ونحن ننقلها على حسب ما وجدنا فيها لأجل الفائدة»[٤٤]؛ عبد الله كروم: «..مخطوطة في أوراق متهالكة بخزانة بن الوليد بقصر با عبد الله (أدرار)، لصاحبها بن الوليد الحاج عبد القادر، وهذه الرحلة تعتبر نقلة نوعية في أدب الرحلة بإقليم توات؛ لأنها تخلصت من أدب التراجم، والإجازات، واتضحت فيها معالم الرحلة جليا، واكتسبت بعدا آخر، وهو ان صاحبها مات وهو يؤلفها، فلم يكملها...»[٤٥]؛ وكان من الطبيعي أن تكون خلاصة أسلوبه في التأليف والرحلة.

واستهلها على نهج الخطباء والفصحاء من أهل البلاغة والقول بمقدمة وفواصل مسجوعة متجانسة في اللفظ وفي المعنى، يقول: «الحمد لله الذي فرض على المكلفين حج بيته العتيق، وجعله حرما وغفر ذنوب من حجه وهو بذلك حقيق، أحمده على ما هدانا إلى خير طريق ... على ما منحنا من التوفيق، وأشهد أن لا إله إلا الله لا شريك له شهادة تجينا من عذاب الحريق، وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله إلى خير فريق، اللهم صل عليه وعلى آله وأصحابه الذين أقاموا الدين أفضلهم الصديق؛ وبعد...»[٤٦]؛ وكيف أنه اختار حرف القاف دون الحروف لندرك القوة في المنطلق والصحة في المنطق وكل ما يتصف به هذا الحرف من صفات[٤٧].

ويخبرنا عن فضل أصحابه في القدوم على هذه الرحلة وقد كان يشكو ضيق وعسر في الحال حتى سخر الله له منهم من يعينه على ذلك، خاصة ونحن نعلم كيف الركوب وكيف المسافة إلى الحجاز، فاستشار واستخار في الأمر كثيرا، رغم أنهم وعدوه بالتكفل إلا أنه طلب منهم القرض، ورأى أحدهم أن يدفع عنه نصف التكاليف تقربا وطلبا لأجر والثواب، فقبل منه ذلك[٤٨]، وتيسرت أموره بفضل الله تعالى، ورأى في ذلك إذنا لما يقبل عليه « وعلامة الإذن التيسير...»[٤٩].

خرج الرحالة وجماعته كما تقدم الذكر فغي التاريخ المذكور بعد صلاة الجمعة من بلاده وعند اصفرار الشمس حطوا الرحال في تمنطيط وليلة الحد خرجوا منها إلى الجديد ثم إلى زاوية كنتة وباتوا هناك ثم خرجوا صباحا ومروا على ضريح الشيخ بن عبد الكريم المغيلي[٥٠]، وفي الصباح توجهوا لبلاد تيدكلت وأقاموا فيها يومين تنقلوا بين تمقطن وزاوية السيد أبي الأنوار أين ظلوا ثلاثة أيام ومنها لأولف وقضوا ليلة ثم زاوية تقرافت كذلك ليلة ثم بلاد ديدر ثم زاوية سيدي أبي نعامة الذي سن سنة حسنة في الحج لأهل هذا الإقليم وما حوله من البلدان، بين الرحالة ذلك قائلا: « ..ثم رحلنا لزاوية أبي نعامة نفعنا الله به وزرناه وهو الذي أحيا سنة الحج من بلاد توات وبلاد التكرور فأقمنا بها أربعة أيام واستأجرنا هناك دليلا من الطوارق اسمه "تكمن" ثم قمنا بها متوجهين لعين صالح...»[٥١]؛ وقضوا أربعة ليال على طريق الغابة، وحل شهر رجب في الليلة الرابعة منها وهي التي توافق الخميس الثامن والعشرين من أغشت (أوت)، واجتمعوا خلالها بمعارف لهم منهم أحمد بن الفقيه الحاج إبراهيم والحاج محمد بن عبد الله وآخرين، ويوم الاثنين الخامس من رجب الموافق للأول من شتنبير (سبتمبر) نزلوا ظهرا على بئر في الطريق*[٥٢] وباتوا حوله؛ واستمروا في التقدم واستمر الشيخ في التدوين يصف تارة ويخبر ثانية ويلمح ثالثة ويتجاوز في أخرى، ويزاوج بين الوصف دون إسهاب والذكر دون إطناب.

غير أنه لم يكن يكثر أو يذكر كل من يراهم أو يمر عليهم أو ما يراه أو يحاذيه، ويسمي الوديان والسباخ والجبال ومثلها الأماكن المشهورة التي يقف عليها وينبه على مائها ونباتها وملوحتها وحلاوتها[٥٣] وشيء غير قليل مما لا يتسع المقام لسرده، ولا يغفل في ذلك الإشارة الدقيقة للوقت بالتقدير الجاري لديهم في زمانهم.

ولما كان يوم السبت السادس عشر من شعبان والتاسع من اكنوبر نزلوا بملتقى الركبان حيث التقوا السيد محمد بن الشيخ أبي نعامة[٥٤] المشار إليه الذي يتقدمهم ويقودهم إلى الحج، ولا يغفل عن ذكر المصاعب والمهالك وما اعتراهم من المتاعب، يقول في وصف أحدها: « ..وبتنا قريبا من مدينة وجلة، ثم أصبحنا يوم السبت الحادي والعشرين من رمضان والخامس عشر من نونبر (نوفمبر) وأقمنا بها يوم الأحد وأهلها في غاية المشاكسة في المعاملة وقلة الأمانة...»[٥٥]؛ ثم يقول بعد قليل: « ..جاوزنا بندر عجرود بقليل وسرقنا سراق العرب تلك الليلة وأخذوا لبعض الركاب رحلنا منه وسلكنا طريق الصانع... وإنما فعلوا ذلك لأن تلك الطريق كلها سبخة ورمل لا يظهر فيها أثر سالكيه غالبا...»[٥٦]؛ وقد كان الشيخ يمتطي ظهر حمار له ويفترش عليه كساء

جيدا مريحا أشار بأنه فقده آخر النهار على طرف غدير ماء وقفوا للذود منه إذ قال: «..وهناك سقط لي كساء جيد كنت فرشته على ظهر الحمار الذي أركبه...»[٥٧]؛ من ذلك أيضا أن رفاقا له ماتوا في السبيل، منهم عبد الرحيم صاحب تمنطيط.

وياتي على ذكر اختلاطهم بالقوافل من عرب المشرق مثل القادمين من الشام أو مصر أو تونس، ويذكر من مات قبيل الوصول وحينه من رفاقه: عبد الرحمن بن المستور وآخر سقط اسمه من الأصل، وغلام الشريف المهدي بن الكبير والحاج محمد بن عبد القادر بن مهم والعباس بن الحاج إبراهيم ومحمد بن المبروك[٥٨]؛ هذا فضلا عن قلة الأمن، يقول الرحالة واصفا: «..ثم رحلنا منه وقطعنا العقبة الهائلة التي يضرب في الوعرة وشدة الخوف لأن عرب تلك الأرض تتعرض للأركاب فيها ولاسيما ركب المصري...»[٥٩].

وكان مما عاناه بشخصه ما يخبر عنه بقوله: في يوم الرابع من شعبان آخر شتنبر (سبتمبر) وقع في ذلك من القدر فسقطت من الراحلة وأنا ناعس على جنبي الأيمن، أرض صلبة، ولولا لطف الله بي لانكسر عظم من عظامي، ولكن الله سلم فقمت وركبت راحلتي، ولما نزلت لصلاة الظهرين ثقلت علي عظامي، ولما وصلنا منزل المبيت تعذر علي المشي»[٦٠]؛ ويصف خلال ذلك ما رأى من عادات المجتمع المصريو ذكر القاهرة والنيل والعقبة ووقف على قبر الإمام الشافعي والسيدة نفيسة والأزهر الشريف؛ وبلغ مراده وما سافر لأجله إذ قال: «..ووصلنا مكة واغتسلنا وأردنا الدخول من كداء اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم فمنعنا شي وقع من الأعراب فيه، فأخذنا ذات اليمين ونزلنا بكدى المسمى باب الشبيكة ودخلنا منه يوم الأربعاء السابع من الشهر ثم دخلنا المسجد الحرام من الباب المقابل المقام المالكي إذ لم يمكننا من الدخول من باب السلام...»[٦١]. ويسرد باق المناسك وأداء الشعائر وزيارته قبر الرسول صلى الله عليه وسلم؛ وما كنا من زيارة المشهور من الشهداء والبقاع والمساجد، إلى غاية دخوله القاهرة في رحلة الرجوع حيث قال: «..حتى دخلنا القاهرة بعد ارتفاع النهار يوم الخميس الثاني عشر من صفر فلله الحمد نسأله تعالى أن يتم علينا نعمته بالوصول إلى بلادنا سالمين»[٦٢]؛ ولكل أجل كتاب، فقد كانت تلك السطور آخر ما خطه الرحالة وهو في القاهرة، فقد وافاه أجله بعد سبعة عشر يوما من دخوله مصر من عام تسع وثمانين ومائة بعد ألف سنة منه جرة الرسول صلى الله عليه وسلم.

ثانيا– جواهر مختارة من أدب الرحلة العلية:

الرحلة العلية تعد منبعًا غزيرًا للمعرفة، مليئة بالأدب الرفيع والفنون المتنوعة التي لا يشبع منها الطالب، الباحث، والأستاذ عند تصفحها. بل إنها تثير فيهم رغبة قوية لاستمرار البحث واكتشاف المزيد من أسرارها التي تنتظر من يكشف عنها. ومن خلال محاولتي المتواضعة، اخترت بعض العينات التي لفتت انتباهي لجمالها وإبداعها، حيث تتجلى فيها خصائص التفرد والإبداع.

وأبدأ هنا ببعض الأبيات التي ذكرتها سابقًا في الهوامش، لصاحبها محمد بن المبروك البوداوي، الذي اشتهر في الإقليم بشعره المميز في مدح النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم.، ومن أطرف ما جاء به أنه زاوج بين بحرين في قصيدة واحدة بموضوع واحد؛ بين المنسرح الذي أجزاؤه: **"مُسْتَفْعِلُنْ مَفْعُوْلاتُ مُسْتَعِلُ"**؛ والبحر البسيط الذي أجزاؤه: **مُسْتَفْعِلُنْ فَاْعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ فَاْعِلُنْ**؛ فتقرأها تارة على بحر وفي أخرى على آخر[٦٣]:

فأنشد الشاعر القصيدة على المنسرح وقال:

عدمت ليلى وقلبك احترقا * من أجل فرقتها وما سبقا

عاهدتها في الدجى بقبتها * وكنت تطرقها إذا اتسقا

ثم أنشد القصيدة ذاتها على البسيط:

عدمت ليلى أخي وقلبك احترقا * من أجل فرقتها العظمى وما سبقا

عاهدتها في الدجى ليلا بقبتها * وكنت تطرقها به إذا اتسقا

ومما يلفت عناية الناظر ما كان للشاعر من اقتباسات توحي بسعة إلمامه بقديم الشعر، ذلك لما أنشد على البسيط يقول[٦٤]:

بانت سعاد وبان الشيب في جسد ** وأضرمت جذوة الجحيم في كبد

وبعد أبيات يقول:

ولا تغرنك الدنيا وزهرتها ** لأنه خلق الإنسان في كبد

ومن بين الأعلام يقع الباحث مأسورا بين يدي واحد ممن ذاع صيتهم في البلاد وخارج البلاد، ولولا القيد في اختيار الموضوع لكنت آثرته بالدراسة على قريبه الرحالة عبد الرحمن بن عمر، إنه **الشاعر السيد البكري بن عبد الرحمن بن الطيب بن أحمد بن محمد بن عمر بن معروف بن يوسف التينلاني**، أحد علماء اللغة والنحو والعروض إلى جانب الفقه وعلم الفرائض، كان شعره تعليميا في جملته، يرسل اللغز في قصيدة ويجيب عنه ويحله في أخرى[٦٥]،

ويجمع الباحثون على أنه نظم في مختلف البحور، غير أن أطرف من ذلك قصيدته الخالية من صورة الألف أكثر الحروف دورانا في الكلام، التي ينشد فيها قائلا[٦٦] [**الطويل**]:

محمد ذو وصف عزيز تعززت * قريش به في كل وقت وجلة

محمد عنصر لكل مكون * بعلو وسفل له من خليقة

وأطرف منها قصيدة من أربع وعشرين بيتا خالية من الحروف المعجمة، يقول في مطلعها [**الطويل**]:

سما لرسول الله مدح مكرم * وسر علوه الأود المسودا

وساعد مادحا علو محمد * وصار إمامه وصار مسودا

وهو ما يعرف **الجناس العاطل** بمعنى الفارغ والخالي، ويقال له الجناس المهمل، محسن لفظي يقصد به الإتيان بألفاظ كل أحرفها من الحروف مبهمة، نحو "لا إله إلا الله، محمد رسول الله"، عكسه **الجناس الحالي**، بمعنى ذي الحلية، ويقال له **الجناس المعجم**، أي ما كانت كل حروفه معجمة، كقول الشيخ صفي الدين الحلي:

"فتنت بظبي بغي خيبتي * بجفن تفنن في فتنتي.

والتعطيل عند البلغاء قسم من الحذف وهو أن يأتي الكاتب أو الشاعر بكلمات لا إعجام فيها أي بدون نقطة في أي من حروفها.

وله مثلها قصيدة أخرى[٦٧] من إحدى وأربعين بيتا [الكامل]:

مدحي علو محمد المعصوما * هضى الملوم وحاسدا مسموما

وصحى له حلكى وحال سواده * سعدا وسر سروره المهموما

لم لا وأحمد سر كل محامد * وسموه سام علاه عموما

ومن لطيف مدائحه ما انشده في الرسول صلى الله عليه وسلم [٦٨]وعددها ثلاث وتسعون بيتا:

هام دمعي على الخدين لما * وقفت على ربوعهم البوالي

وذكرني بها طلل عفته * شعاب السيل أيام الوصال

فظلت مع اضطرام القلب أبغي * أنيسا من هنالك بالمقال

فلم أجد بها إلا وحوشا * يثير زئيرها استيحاش بالي

ومما جاء به موشحا[٦٩] في ثمان وخمسين بيتا:

يا برق نجد تألقْ * لمن عراه الغرامْ
ويا صباه فهيا * لتنعش من يضامْ
لي جيرة في حماه * ببينهم لي هيامْ

ومثلها لما أنشد قائلا[٧٠]:

أيا نسيم الصبا هل * سلكت واد العقيق
يجري بماء معين * كالسلسبيل الرحيق
وهل مررت بحي * بحافتيه وسيق
وهل بقرب الخيام * أهل المصلى العتيق

وأنشد على الخفيف يتغنى بالشاي[٧١]:

أيها الخل إن صنعت أتايا * وتانقت فاحذرن هواء
صنه منه بأغطيات صفيقات * نقيات تكن لذاك دفاء
وينلك الأتاي من فيه من سـ * ـر وطبع ،مزية ودواء

وارتقى الشيخ في عنايته بعشبة الشاي أو كما يسميها (**الشاهي**) حتى خصها بمنظومة أرجوزة سماها: **العنبرية**[٧٢]، في التعريف بالشاي ومنافعه؛ ونحا في ذلك منحى جميلا لطيفا، وهي جديرة بالاطلاع، قال بعض فصولها: (فصل في صفة استعماله):

الطبخ للما غاية مستحسنه * ببقرج والنار تحته لينه
فصبه عليه في البراد * وضع به السكر في المبادي
فإن تحققت امتزاج الكلّ * فاشرب بكأس نفعت من كلّ
وعاودن صبك مثنى وثلاث * وكن به على الدوام ذا ثبات

وفي فصل آخر: (فصل فيما يمزج به الشراب):

المزج بالعنبري أو بالزهري * أو اللويزة شفاء يبري
أو نعنع أو شبة الشتاء * لأنها في الفصل برء الداء

ملاحظة:

مما سبق ندرك أن الجناس العاطل أو الجناس المهمل يعد من المحسنات اللفظية التي تضفي على النصوص جمالية من نوع خاص، حيث يتم استخدام كلمات تتشابه في الحروف ولكن بدون أي نقاط عليها، مما يخلق نوعًا من الغموض والتأمل في المعنى. من خلال هذا الأسلوب، يُمكن

للكاتب أو الشاعر أن يقدم مفردات قد تبدو فارغة من حيث المضمون الظاهري، لكنها محملة بأبعاد دلالية قد تتكشف عبر السياق. هذا النوع من الجناس يبرز التلاعب اللفظي ويضفي عمقًا على العمل الأدبي، كما يظهر في الأمثلة مثل "لا إله إلا الله، محمد رسول الله"، التي لا تقتصر على المعنى الظاهر بل تنطوي على قيمة دينية وفكرية عميقة.

وفي المقابل، يعكس الجناس المعجم (الجناس الحالي) نوعًا آخر من المحسنات، حيث يكون كل حرف من الكلمات معجمًا ومحددًا، كما في قول الشيخ صفي الدين الحلي: "فتنت بظبي بغي خيبتي". في هذا النوع، تتسم الكلمات بجمالية منسقة من خلال الإعجام الكامل للأحرف، ما يخلق تأثيرًا موسيقيًا وبلاغيًا في النص.

وعليه، فإن التباين بين الجناس العاطل والجناس المعجم يظهر قدرة الشعراء والكتاب على استخدام اللغة بطريقة مبدعة لتوفير ثراء دلالي وفني، يسهم في جعل النص أكثر تأثيرًا وجاذبية.

● **خاتمة البحث:**

في ختام هذا البحث المتواضع نقف على جملة من أبرز النتائج التي استخلصناها وهي كما ياتي:

١) **توثيق الرحلات العلمية والفكرية** :تعتبر الرحلة العلية مصدرًا غنيًا للتوثيق العلمي والفكري، حيث قدم محمد باي بلعالم تفاصيل دقيقة حول رحلاته ومقابلاته مع علماء مختلفين في بلدان متعددة. لقد أتاح للباحثين والمختصين فرصة استكشاف تاريخ العلاقات العلمية بين مختلف المناطق، بالإضافة إلى الممارسات التعليمية التي كانت سائدة في تلك الفترات.

٢) **دور الرحلة في نشر المعرفة** :شكلت الرحلة العلية نافذة لانتقال العلوم والمعرفة بين بلدان المغرب العربي وبقية أنحاء العالم العربي والإسلامي. فقد ساعدت هذه الرحلات على تعزيز التبادل الثقافي بين العلماء والمفكرين في تلك الحقبة، وأسهمت في تطور الفكر العلمي في إقليم توات والمناطق المجاورة.

٣) **إبراز محسنات اللغة العربية** :تميزت الرحلة العلية باستخدام محمد باي بلعالم للكثير من المحسنات البلاغية واللغوية، مما يبرز إلمامه الواسع بالفنون اللغوية والأدبية. فقد أدرج في نصوصه أساليب بلاغية متنوعة، مما أعطى النصوص التي أوردها طابعًا فنيًا وجماليًا عاليًا، مثل الجناس وغيره من المحسنات اللفظية.

٤) **استعراض وتوثيق سير العلماء** :أحد الجوانب البارزة في الرحلة العلية هو توثيق سيرة العلماء الذين التقى بهم محمد باي بلعالم. فقد قدم تفاصيل حول سيرتهم الذاتية، وأسلوبهم التعليمي، وإسهاماتهم الفكرية، مما يجعل من الرحلة العلية مصدرًا مهمًا لدراسة حياة العلماء وأثرهم في تطور الفكر الإسلامي والعلمي.

٥) **توجيهات علمية وتربوية** :قدمت الرحلة العلية العديد من التوجيهات العلمية والتربوية التي يمكن الاستفادة منها في سياق التعليم المعاصر. فقد أظهرت كيف كان العلماء في تلك الفترة يسعون لتكوين جيل من المتعلمين الذين يتسمون بالعلم الشرعي والفقه والبلاغة، وكيف كان التبادل العلمي جزءًا من العملية التعليمية.

٦) **التأثير على الدراسات المستقبلية** :شكّلت الرحلة العلية دافعًا للعديد من الباحثين المعاصرين لاستكشاف تاريخ الرحلات العلمية في المغرب العربي، ودورها في تعزيز الفهم المتبادل بين العلماء في المنطقة. كما ألهمت الباحثين للتوجه نحو دراسة العلاقة بين التنقل الثقافي والعلمي في تلك الفترة وكيف ساهمت الرحلات في نقل المعرفة والتأثير على الفكر العربي والإسلامي.

٧) **التوثيق الأدبي واللغوي** : لم تقتصر الرحلة العلية على النقل التاريخي فقط، بل كانت أيضًا وسيلة لتوثيق الأدب العربي في مختلف مجالاته من شعر وأدب نثري، حيث ذكر فيها العديد من النصوص الشعرية والنثرية التي تعكس أسلوب العصر وتطوراته الأدبية.

٨) تتجلى أهمية البحث في تسليط الضوء على الأدوات البلاغية واللغوية التي استخدمها الشيخ عبد الرحمن بن عمر التنلاني في رحلته العلية، التي تضمنّت مجموعة واسعة من الرحلات والأخبار والملح والأدب الغزير، مما يجعلها إضافة هامة للمكتبة الأدبية والعلمية. فقد تناول البحث مراحل الرحلة وأبعادها المتعددة، مشيرًا إلى تميزها عن غيرها من الرحلات في تناولها للعديد من الفنون والمعارف التي تهتم بالعلوم الشرعية واللغوية والأدبية. كما أبرز البحث القيمة المعرفية والفنية للرحلة العلية التي شهدت تفاعل الشيخ مع عدد من العلماء والمفكرين، ما أثّر في مواقف رحلاته وأدبه.

٩) تم التوسع في دراسة الرحلات العلمية التي قام بها الشيخ عبد الرحمن بن عمر، والتي تميزت بطابعها المتنوع بين الرحلات الداخلية والخارجية، سواء في إقليم توات أو خارج الوطن. وقد كانت تلك الرحلات، كما أشار الباحث، ذات هدف علمي نبيل تمثل في طلب العلم

والاستزادة من شيوخ العلماء، ما أكسبه قدرًا من الاحترام والسمعة الطيبة بين العلماء والمفكرين. كانت رحلة الشيخ بمثابة خطوة جديدة لتوثيق هذا التراث العلمي والمعرفي، الذي غالبًا ما يظل غريبًا عن أذهان الكثيرين، مما يجعلها مهمة كبيرة لربط الماضي بالحاضر.

١٠) تسليط الضوء على أسلوب الجناس العاطل والجناس المعجم، بمفهومه البلاغي والفني، أضاف بُعدًا آخر لفهم محسنات اللغة التي تخللت النصوص الأدبية التي أوردها الشيخ في رحلته. فقد تبين من خلال التوسع في تحليل الجناس أنه يمثل أداة تلاعب لفظي لا تقتصر فقط على الزخرفة الصوتية، بل يتعداها إلى توظيف المعاني والأفكار بأسلوب مبتكر يعزز من قوة التأثير البلاغي للنصوص. وقد أشار البحث إلى أن الجناس العاطل يقدم جمالًا بلاغيًا غامضًا، بينما الجناس المعجم يبرز التنسيق الحرفي في تقديم المعنى بطريقة واضحة ودقيقة.

١١) كما تناول البحث تأثير تلك الأساليب على النصوص والأدب بشكل عام، وضرورة دراسة هذه المحسنات كأداة تساهم في تطوير الفهم البلاغي للأدب العربي. من خلال هذه الأدوات اللفظية، يصبح النص الأدبي أكثر ثراءً وتنوعًا، قادرًا على جذب القارئ وتأثيره بأدوات جمالية معقدة، مما يعكس مدى براعة الكاتب في توظيف اللغة بأسلوب خاص ومؤثر.

وفي الختام، يظهر البحث أن الرحلة العلية لم تكن مجرد تدوين لمجموعة من الأخبار والرحلات، بل كانت رحلة معرفية وثقافية تُبرز مكانة الشيخ عبد الرحمن بن عمر التنلاني كمفكر وعالم متميز. كما تُعدّ إضافة قيمة لدراسة الأدب العربي، خاصة في ميدان البلاغة والفنون اللفظية.

- **ملحق:**

أحببت أن أنقل صور المخطوط الذي فيه الرحلة المتقدم ذكرها وكذلك ما توفر من صور الأماكن والمشايخ :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

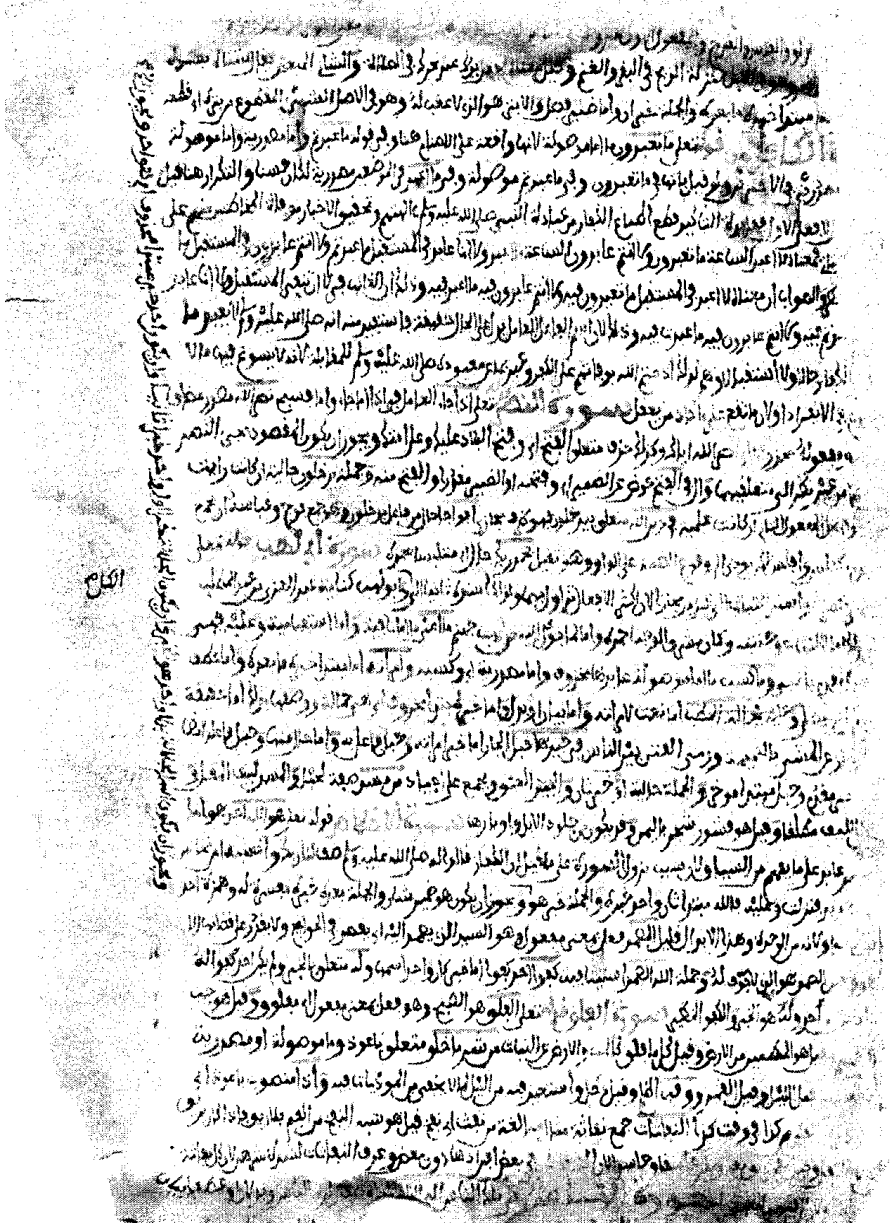

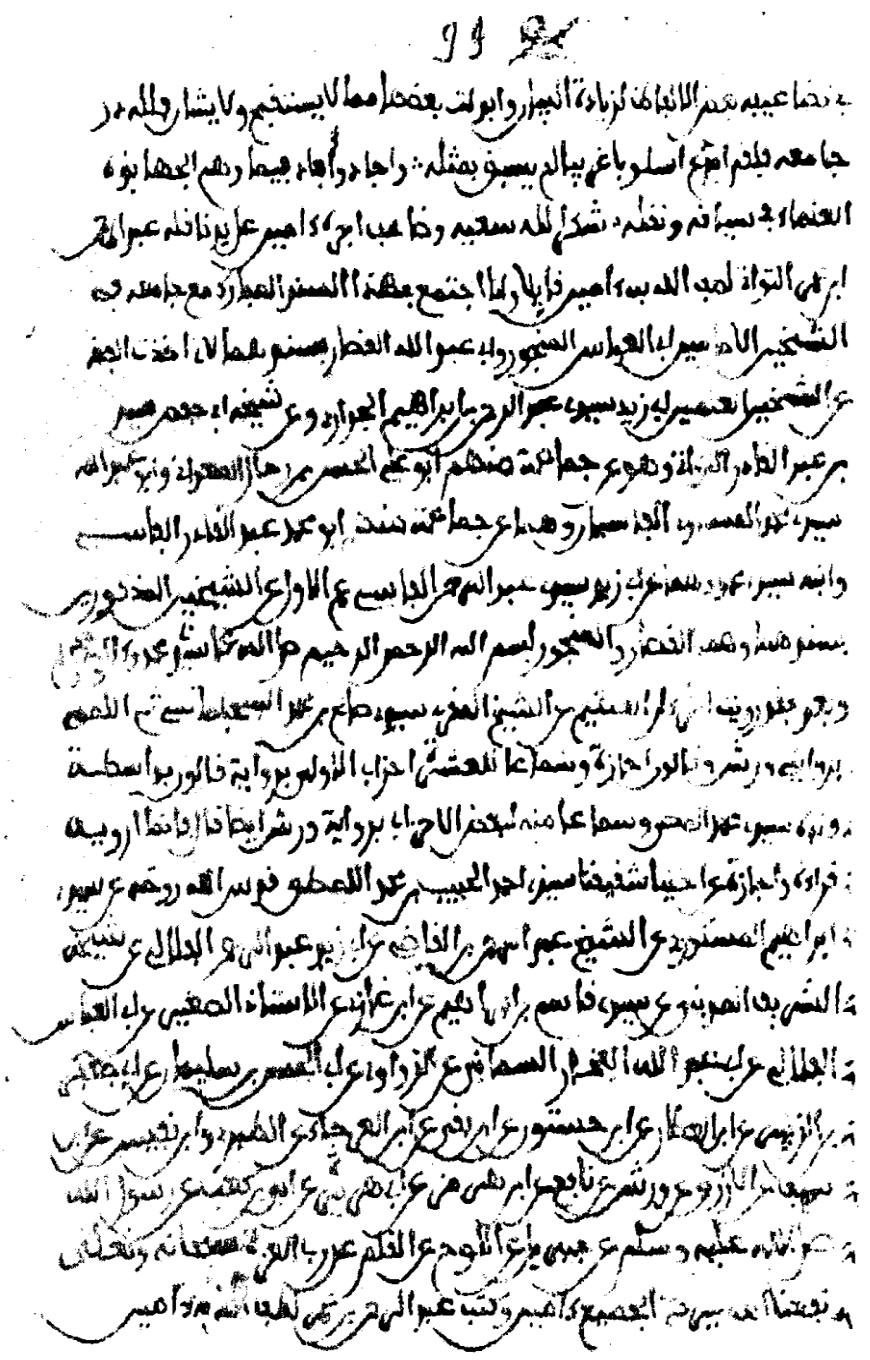

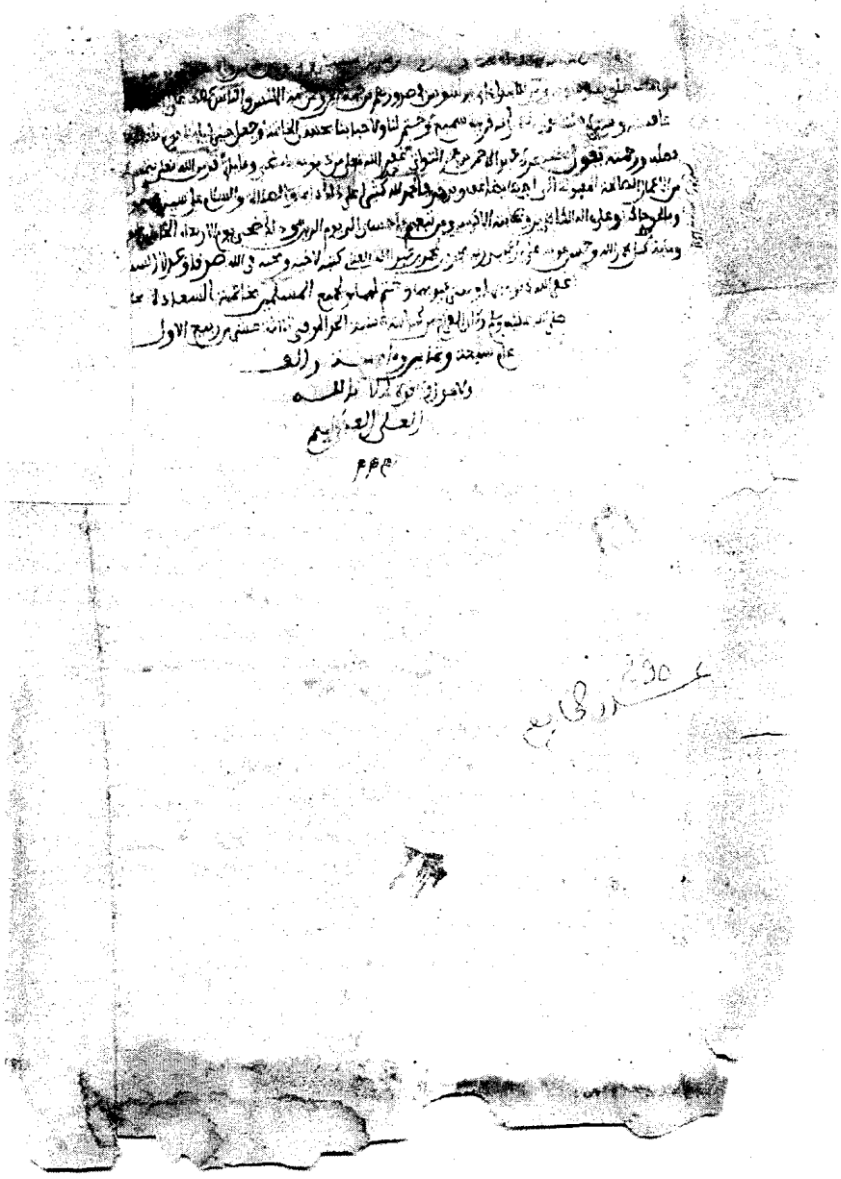

قائمة المصادر والمراجع:

١) الشيخ محمد باي بلعالم، الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات، دار هومه،الجزائر، طبعة ٢٠٠٥.

٢) فرج محمد فرج، إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر .

٣) عبد الرحمن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، مطبعة الجزائر، جـ٢.

٤) مخطوط جوهرة المعاني في تعريف ما ثبت لدي من علماء الألف الثاني، ابن عبد الكريم، المكتبة البكرية، تمنطيط ، والجامع الكبير أدرار.

٥) أبو القاسم محمد الحفناوي تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيير فونتانا الشرقية في الجزائر، طبعة ١٩٠٦.

٦) فهرس المرصاع، أبو عبد الله محمد الأنصاري، تونس ١٩٦٧.

٧) مخطوط (تاريخ توات): محمد بن مبارك، مكتبة محمد بن الكبير أدرار.

٨) العبر والمبتدأ والخبر....، ابن خلدون بيروت، جـ ٧.

٩) الشيخ محمد باي بلعالم، الرحلة العلية، المرجع نفسه، مع بعض الاختصار: ج١.

١٠) . محمد باي بلعالم، الغصن الداني في ترجمة وحياة عبد الرحمن بن عمر التينلاني، دار هومه، طبعة ٢٠٠٤.

١١) مخطوطة جوهرة المعاني في تعريف ما ثبت لدي من علماء الألف الثاني، ابن عبد الكريم، المكتبة البكرية، تمنطيط، والجامع الكبير أدرار.

١٢) عبد الله كروم، الرحلات بإقليم توات (دراسة تاريخية وأدبية للرحلات)، دار النشر دحلب، طبعة ٢٠٠٧.

١٣) الشيخ عبد الرحمن بن عمر، الفهرسة، خزانة ابن الوليد، با عبد الله، وخزانة تمنطيط.

١٤) الشيخ عبد الرحمن بن عمر، رحلتي للحج، مخطوط، خزانة بن الوليد، با عبد الله، أدرار، ص: ٠١.

الهوامش

[١]- الشيخ محمد باي بلعالم، الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات، دار هومه،الجزائر، طبعة ٢٠٠٥، ج١/جـ.

[٢]- ينظر: الشيخ محمد باي بلعالم، الرحلة العلية ، المرجع نفسه، مع بعض الاختصار: ج١/ د.

[٣]- المرجع نفسه، الموضع نفسه.

[٤]- نسبة إلى تينلان: إحدى قصور تيمي في الشمال الشرقي لمدينة ادرار. محمد باي بلعالم، **الغصن الداني** في ترجمة وحياة عبد الرحمن بن عمر التينلاني، دار هومه، طبعة ٢٠٠٤، ص: ٠٣.

[٥]- **مخطوطة** جوهرة المعاني في تعريف ما ثبت لدي من علماء الألف الثاني، ابن عبد الكريم، المكتبة البكرية، تمنطيط ، والجامع الكبير أدرار، ص: ٠٤.

[٦]- محمد باي بلعالم، الرحلة العلية، مرجع سابق، ص: ٢٢٠؛ وفي الغصن الداني: « الشيخ عمر بن عبد الرحمن بن محمد بن معروف بن يوسف بن أحمد بن يوسف بن محمدبن علي بن الحسين بن الحسن بن الحسن بن يوسف بن أحمد بن داود بن محمد بن سلطان بن تميم بن عمر بن ملوك بن موسى بن مدان بن دان بن سكناس بن مغرور بن قيس بن محمد بن أبان بن عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف »، المرجع السابق، ص: ٠٣.

[٧]- محمد باي بلعالم، الغصن الداني، السابق، ص: ٠٣.

[٨]- عبد الله كروم، الرحلات بإقليم توات (دراسة تاريخية وأدبية للرحلات)، دار النشر دحلب، طبعة ٢٠٠٧، ص: ٥٩.

[٩]- **مخطوطة** جوهرة المعاني ، مرجع سابق، ص: ٣٧.

[١٠]- محمد باي بلعالم، الغصن الداني ، المرجع السابق، ص: ٥٦- ٦٠.

[١١]- عبد الله كروم، الرحلات بإقليم توات، نفسه، ص: ٥٩.

[١٢]- عبد الله كروم، المرجع نفسه، ص: ٦٠.

[١٣]- محمد باي بلعالم، الغصن الداني، مرجع سابق، ص: ٧١.

[١٤]- الإمام السيد أبو محمد عبد الله بن سليمان المنوفي القاهري المالكي من رواة الحديث ولم يذكر تاريخ وفاته.

[١٥]- توفي عام ١١٩٦هـ، وقد حكي عنه أنه من طبق (مرج البحرين يلتقيان) في الشعر فجمع بين بحرين في قصيدة واحدة (المنسرح والبسيط) فتقرأ القصيدة أولا على المنسرح: عدمت ليلى وقلبك احترقا * من أجل فرقتها وما سبقا

عاهدتها في الدجى بقبتها * وكنت تطرقها إذا اتسقا

ثم تقرأ القصيدة ذاتها على البسيط: عدمت ليلى أخي وقلبك احترقا * من أجل فرقتها العظمى وما سبقا

عاهدتها في الدجى ليلا بقبتها * وكنت تطرقها به إذا اتسقا

[١٦]- **ينظر** : محمد باي بلعالم، الرحلة العلية، القصيدة كاملة في الصفحات: ١٢٦ – ١٢٨.

[١٧]- **وضع** العنوان والترتيب على نفس النمط في الغصن الداني للشيخ محمد باي بلعالم، من الصفحات: ٥٨ – ٧١.

[١٨]- مملكة التكرور أو التكرور Tukulor هو اسم لشعب كبير من القبائل الحامية أسس مملكة أفريقية قديمة جدا امتدت من غرب السودان إلى سواحل المحيط الأطلسي في أراض شاسعة تزيد عن مساحة الجزيرة العربية والعراق والشام معا. ضمت تلك المملكة أرضي المناطق المعروفة اليوم: موريتانيا والسنغال ومالي ونيجيريا والنيجر وتشاد وصولا إلى حدود دارفور في السودان ويذهب بعض المؤرخين، خاصة العرب، إلى إن اسم تكرور هو اسم لمدينة على نهر السنغال الحالي وكانت عاصمة مملكة التكرور.

[١٩]- السيد عمر بن محمد بن المصطفى الكنتي المتوفى عام ١١٥٧هـ بقرية زلا بلدة فزان ليلة الجمعة الثالث والعشرين من ربيع الثاني (ينظر: الغصن الداني)

[٢٠]- **هو أحد شيوخه** السيد عمر أبو حفص بن عبد القادر التينلاني (١٠٩٨ – ١١٥٢هـ) وقد تقدمت الإشارة إليه.

[٢١]- الشيخ عبد الرحمن بن عمر، الفهرسة، خزانة ابن الوليد ، با عبد الله، وخزانة تمنطيط، ص: ٣٦.

[٢٢] - عبد الله كروم، الرحلات بإقليم توات، نفسه، ص: ١٠٩.
[٢٣] - الشيخ عبد الرحمن بن عمر، الفهرسة، السابق، ص: ٣٧.
[٢٤] - المصدر ذاته والموضع ذاته.
[٢٥] - المصدر ذاته والموضع ذاته.
[٢٦] - محمد باي بلعالم، الغصن الداني، مرجع سابق، ص: ٥٨ – ٥٩.
[٢٧] - مدينة في شمال مالي.
[٢٨] - محمد باي بلعالم، المرجع نفسه، ص: ٥٩.
[٢٩] - المرجع ذاته والموضع ذاته.
[٣٠] - الشيخ عبد الرحمن بن عمر، الفهرسة، السابق، ص: ٣٨.
[٣١] - **سِجِلْماسَةُ** مدينة تاريخية كانت تقع وسط واحة كبيرة جنوب الأطلس الكبير، مقابلة لمدينة الريصاني في تافيلالت الحالية، واليوم تعتبر المدينة موقعا أثريا يضم الآثار والخرب والأطلال، وتقع ضمن حدود المملكة المغربية الحالية، بينها وبين توات الإقليم مسيرة ١٣ يوما.
[٣٢] - محمد باي بلعالم، الغصن الداني، مرجع سابق، ص: ٥٩ – ٦٠.
[٣٣] - عبد الله كروم، المرجع السابق، ص: ١١٢.
[٣٤] - محمد باي بلعالم، الغصن الداني، مرجع سابق، ص:: ٦٠.
[٣٥] – الشيخ عبد الرحمن بن عمر، الفهرسة، السابق، ص: ٧٤.
[٣٦] - محمد باي بلعالم، الغصن الداني، مرجع سابق، ص: ٦٠
[٣٧] - هذا المصطلح يستعمل للدلالة على مفهوم المرة في ختم القرآن كما يشيع في مدارس القرآن إلى يومنا في توات.
[٣٨] – محمد باي بلعالم، الغصن الداني، السابق، ص: ٦٠.
[٣٩] – الشيخ عبد الرحمن بن عمر، الفهرسة، السابق، ص: ٧٤
[٤٠] - عبد الله كروم، المرجع السابق، ص: ١١٣.
[٤١] - سماها الرحالة: رحلتي إلى الحج، وهي مذكرة مخطوطة في خزانة بن الوليد، ينظر الإحالة رقم: ٤٥ من هذه الصفحة.
[٤٢] – محمد باي بلعالم، الغصن الداني، السابق، ص: ٦٠.
[٤٣] – خزينة ابن الوليد الحاج عبد القادر للمخطوطات بقصر با عبدالله ولاية أدرار
[٤٤] – محمد باي بلعالم، الغصن الداني، الموضع نفسه.
[٤٥] – عبد الله كروم، المرجع السابق، ص:١٢٥.
[٤٦] – محمد باي بلعالم، الغصن الداني، السابق، ص: ٦١.
[٤٧] - القاف تتصف بخمس صفات، أربع صفات من الصفات المتضادة (الجهر . الشدة . الاستعلاء . الانفتاح) وصفة واحدة من الصفات غير المتضادة وهي(القلقلة). أربع صفات قوية وهي (الجهر . الشدة . الاستعلاء . القلقلة).وصفة واحدة ضعيفة وهي (الانفتاح).
[٤٨] - الشيخ عبد الرحمن بن عمر، رحلتي للحج، مخطوط، خزانة بن الوليد، با عبد الله، أدرار، ص: ٠١/ والغصن الداني، ص: ٦١-٦٢.
[٤٩] - الغصن الداني، ص: ٦٢.
[٥٠] - الشيخ محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني ، ٧٩٠هـ| ١٤٢٥م تلمسان – ٩٠٩هـ| ١٥٠٤م أدرار.
[٥١] - الشيخ عبد الرحمن بن عمر، رحلتي للحج، ص: ٠٣/ والغصن الداني، ص: ٦٢.
[٥٢] - * سقطت الكلمة من الأصل. المرجعان نفسهما والموضعان كذلك.

[٥٣]- الغصن الداني، ص: ٦٣.
[٥٤]- المرجع نفسه، ص: ٦٥.
[٥٥]- المرجع نفسه ، ص: ٦٦.
[٥٦]- المرجع نفسه ، ص: ٦٧.
[٥٧]- المرجع نفسه ، ص: ٦٨.
[٥٨]- المرجع نفسه، الموضع نفسه.
[٥٩]- المرجع نفسه ، ص: ٦٨.
[٦٠]- عبد الرحمن بن عمر، رحلتي للحج، السابق، ص: ٠٩.
[٦١]- الغصن الداني ، ص: ٧٠.
[٦٢]- المرجع نفسه ، ص: ٧١.
[٦٣]- محمد باي بلعالم، الرحلة العلية، مرجع سابق، ص : ١٢٣.

[٦٤]- المرجع السابق، ص: ١٢٧.
[٦٥]- ينظر: المرجع نفسه، ص: ١٦٤ – ١٦٥.
[٦٦]- القصيدة كاملة من ٣٣ بيتا نقلها الشيخ محمد باي بلعالم في الرحلة العلية، ص: ١٦٨ – ١٦٩.
[٦٧]- المرجع السابق، ص: ١٧٠ – ١٧١.
[٦٨]- المرجع نفسه، ص: ١٨٧.
[٦٩]- المرجع نفسه، ص: ١٨٨.
[٧٠]- المرجع نفسه، ص: ٢١٧.
[٧١]- المرجع السابق، ص: ١٨٩.
[٧٢]- الرحلة العلية، ص: ١٩١ – ١٩٦.